العدد (1740) السنة السابعة - الثلاثاء (9) آذار 2010 ◆ http://www.almadapaper.com - E-mail: almada@almadapaper.com

الآراء الـواردة في الصفحة تعبر عن وجهات نظر كتابها ، وقد لاتتفق بالضرورة مع وجهة نظر الجريدة

للقلم ومانعة الصواعق وظيفة واحدة

من الصعوبة بمكان تخيل عالمنا المعاصر ونوع مقتنياته المادية والروحية المتطورة، من دون تلك المغامرة التدشينية التي مهدت الطريق لأحد أشهر ابطالنا الاسطوريين، من التسلل الى حريم آلهة ذلك الزمان، لانتشال وهج من جوف موقدها المقدس. باكورة ذلك السبيل المشرق من الفضول المعرفي، كلفت ملهم المتمردين غالياً...لكنها شقت الدرب لتدفقات لاحدود لها ممن استوطنتهم حمى الهوس بالحرية والانعتاق بعيداً عن زرائب الخنوع. ولولا تلك المشاعل لظلت سلالات بني آدم تتمرغ في أوحال العتمة وصقيع اليقين الى يومنا هذا.

جمال جصاني

(الخوف والحرية) احدى اشهر الجدليات التي شهدتها سيرة حياة البشر، جدلية تركت نتائجها اشكالاً متعددة من مستويات العيش (الكريم منها والذليل، المتطور منها والمنحط و...) وبما يتناسب وسطوة كل من طرفي هذه المعادلة، التي لاتنفك تتابع خطى البشر لترسم جغرافية الاقدار وحدود ارخبيلات (المحظوظ والمنحوس).

لم تجد مضاربنا المنحوسة نفسها سهواً، وقد اشتهرت بين قبائل القرية الكونية، بامتلاكها لاكثر حقول الزيت المبارك واكبر حقول للخوف والذعر والاذعان في عالم بدأ بعض (مجانينه) يعبث بـ (جينوم البشر والحجر) ويستعد لامتطاء صهوة الهيدروجين... تلك الفتوحات المعرفية والقيمية والمعيشية لم تنهمر عليهم بفعل سرقتهم لاسلحتنا السرية من قبيل (ادعية عزة الدوري ودرباشته او مخطوطات الاستشعار عن بعد التي اختزنت في مصارينها ما حدث وما سيحدث....!) بل عبر الثغرات التي احدثوها في جدران ثوابتهم وقلاع محاكم تفتيشهم التي لم ينجِ منها ذات يوم لا الاعمال ولا النيات.

ولاحقاً عبر تزريق سلالات جديدة من (البدع) في منظوماتهم التعليمية والسلوكية...نوبات من التمرد خارج حيطان المألوف والمأنوس ألقت بهم الى قاع الشبكات العنكبوتية وتجاويف (النانوتكنلوجي) والقادم أخطر...!

انتصارات ما كانت لتتحقق لولا ان تنكب (القلم) شراً بحشود الموروثات من العتمة والحيطان متجحفلاً مع تلك الطبقة الفتية الصاعدة (البرجوازية) ليمنح الحياة نظاماً جديداً من المعنى، ومشمراً عن قدرات لانهائية للسبيل الذي طرق بابه يوماً رواد الاعتزال وموسوعيو أخوان الصفا. ذلك المشوار الذي هجرته قوافلنا منذ أكثر من ألف عام بعد انتصار قوارض النقل وانكماش العقل وانتشار انشودة القيل والقال وعن فلان قال..... لذا لم يكن الامر عجيباً؛ ان ينمسخ القلم في هذه المضارب المحروسة الى مانعة صواعق، يهرول بالضد من وظيفته الاصلية، التي منحته اياها الاقدار المتعاطفة مع اوجاع بني البشر؛ كنائر صواعق تنير الدرب للقوافل الهائمة في هذا اليباب الممتد من الماء الى الماء.

عندما يسرج القلم لطرق المسارب الخائبة والانضمام لجوقة تزيين الجدران وتقديم فروض الطاعة لحثالات البشر، لن تعدم قراطيسنا الورقية والالكترونية مخلوقات تعيد ترميم مشهد انتشال الجرذ الضرورة من جحر الدور، باعتباره مشهداً مفبركاً اهدتنا اياه الاستوديوهات الهوليودية....!

لن نكشف سراً عندما نتحدث عن المثقف باعتباره كائناً لايسيل لعابه لرنين الوليمة. كما هي الثقافة؛ تجربة انسانية لها مشوارها الخاص، المترع بعبق الحرية والتمرد على كل انواع حراب التعسف والقهر، واشكال الصمت المتنوعة. هي سبيكة متراصة من المسؤولية والقلق والجرأة في التصدي لعبثية الاقدار. وستبقى (الثقافة) دفقاً دائماً ترفد مسامات السؤال باكسير الحياة.

لكن هذا النوع من الثقافة والمثقفين نادر في مضاربنا المتخمة بسلالات (مانعة الصواعق) والدواجن الثقافية المتخصصة في نثر الافخاخ والترويج للانخراط في مهرجانات الحظائر. ومن سوء حظ ذلك النوع من المثقفين انه غالباً مايكون متوهجاً او معتكفاً فلا يلبث ان يتم الاجهاز عليه. عكس ضده النوعي الرشيق الجاهز لمختلف الاستدارات العادية منها أو المفاجئة، المتحفز لنقل عدته المعرفية والمهنية من كتف الى كتف وبما يتفق وفرمانات المحظوظين الجدد....فصول ومشاهد هي بعض من عطايا حقبة (المانيفست).

حطام من الهياكل القلمية والدمى الثقافية، يصعب فيها على أمهر النباشين؛ التقاط قطعة نافعة او ذات جدوى من بين ركامه، بما في ذلك اولئك الشيوخ من ذوي البدايات الطيبة، والذين تزحلقت رقابهم الى ذلك اللجام زمن التدجين القومي، لايبدون امتعاضاً من تلك الحقبة الذليلة من حياتهم وحسب، لابل لايجدون فكاكاً عن مضغ حشائش تلك الحظائر والدعوة الى تجريب متعة الترنح تحت زجر ذلك اللجام واستعمالاته المتعددة...! ما زالت تلك القوى التي اكرهت القلم لان ينهض بمهام مانعة الصواعق، آمنة في قلاعها وثكناتها الممتدة حتى ابعد نقطة في دول الجوار. ولكم في مواقف اتحاد الادباء والكتاب العرب اسوة صاعقة عن حال هذه البرك الآسنة المتضامنة مع مصيبتنا ومحنتنا عبر استضافة جنرالات (جمهورية الخوف) وتزويد مدارسنا واسواقنا واماكن عبادتنا وكل مايضج بعيال الله بدفعات متواصلة من الدواب المفخخة والمفرقعات الشديدة الانفجار المخصصة لتحديد النسل..!

محن وكوارث لو سقطت زخة منها على سكان الادغال، لسارعوا الى ابرام اتفاقية سلام دائم بين قبائلها ومكوناتها، ولم تستثن من ذلك طائفة آكلي لحوم البشر. الا قبائل (البستان) المولعين بنبش رفات الثارات السالفة ومضغ مايخلفه القلم المذعور والمأجور....مأزق لايمكن النجاة من دوائره الشاحبة وعيوبه الوراثية من دون تشخيص ذلك الخلل المدمر الذي انتهك منظومة المجتمع الحيوية، وردم تلك المستنقعات التي حولت وطن امتلك ذات يوم أجرأ المشاريع وأجملها الى مرتع لتخصيب الكوابيس.

ولكن أشد ما نخشاه، أن تكون قافلة الصواعق قد شطبت هذا المكان من شبكة طرقها ومواصلاتها الى الابد، لينضم الى أرشيف المحطات المهجورة.

التغيير.. بين الأفراد والأحزاب

أمضيت يومي الجمعة والسبت الماضيين في شرم الشيخ بدعوة من (الهيئة القبطية الإنجيلية للخدمات الاجتماعية) للمشاركة في مؤتمر حول (مستقبل التنوع والتفاعل في مصر) اختاروا له شعارا موحيا (مصر التي في خاطري)، وشارك في المؤتمر أكثر من ١٧٠ شخصا يعكسون بدرجة كبيرة مكونات المجتمع المصري، رجالا ونساء، شيوخا وشبابا، مسلمين ومسيحيين، سياسيين وأساتذة جامعات ومهنيين وصحفيين ورجال دين، وينتمي أغلبهم للطبقة الوسطى المصرية، وإن غاب من الناحية السياسية ممثلون للإخوان المسلمين والشيوعيين، وكان المستقلون (غير المنتمين لأحزاب سياسية) هم غالبية المشاركين.

حسين عبد الرازق

وخلال ثلاث جلسات ناقش المشاركون الهموم المصرية من خلال ثلاثة عناوين.. الأول.. (إطلالة تاريخية علي أبرز محطات الحوار الوطني وأهم نتائجها -نحو قواعد وأجندة لحوار وطني فاعل).

الثاني.. (مستقبل التعددية في مصر وتقليل الفجوة بين الفكر والفعل - الحوار بين النخبة والنخبة والقواعد الشعبية).. الثالث (مستقبل المجتمع المدني المصري وثقافة الحوار والعمل الديمقراطي).

تميزت الجلسة الأولى.. بعد الجلسة الافتتاحية، والتي شارك فيها بالحديث كل من د. أندريه زكي نائب مدير الهيئة القبطية الإنجيلية، ود. علي الدين هلال أمين الإعلام بالحزب الوطني ود. عبد المنعم سعيد رئيس مجلس إدارة مؤسسة الأهـرام.. تميزت بالسخونة، واستدعي ما طرحه د. عبد المنعم أساسا وإلي حد ما ما قاله د. علي الدين هلال نقدا حادا من غالبية الذين تحدثوا في الجلسة (٢٥ متحدثا) سواء للحزب الوطني أو لسياسات الحكم.

بدأ د. علي حديثه بالإشارة إلي ثلاثة أحداث، رفض الجمعية العمومية لمستشاري مجلس الدولة تعيين قاضيات في المجلس (بحجج هزيلة متحاشين جميعا السبب الحقيقي وهي وجهة نظر في تفسير الدين الإسلامي)، وموافقة ٧٥٪ في استطلاع نظمه مجلس السكان الإعلامي ومجلس الوزراء على (حق الزوج في ضرب زوجته)، ومسح القيم العالمي الذي تناول الدور الرئيسي الذي يلعبه الدين في سلوك الإنسان، والذي كشف أن ١٠٠٪ من المصريين - مسلمين ومسيحيين - يلعب الدين الدور الرئيسي في حياتهم، وهو أمر يتناقض مع شيوع الفساد والكذب والغش في المجتمع المصري.. مؤكدا علي رفضه للتمييز والتباس العلاقة بين المسلمين والمسيحيين، ومحملا (الجماهير) المسؤولية عن هذا الواقع السلبي، متجاهلا مسؤولية الحكم والسياسات المطبقة خلال العقود الأربعة المنصرمة في هذا الواقع السيئ!. أما د. عبد المنعم سعيد فبعد أن قدم رؤية نظرية للنماذج الأربعة للتغيير التي يعرفها العالم، سواء عندما تتغير السياسة (أوروبا الشرقية)، أو عند تحقيق النمو الاقتصادي ثم التحول إلى الديمقراطية واقتصاد السوق (إسبانيا - البرتغال - كوريا الجنوبية - تايوان)، أو التغيير بالقوة المسلحة (اليابان وألمانيا بعد الحرب العالمية)، والتغيير بالتدرج عبر عملية ديالكتيكية (جدلية) طويلة (بريطانيا من الماجناكارتا إلي الديمقراطية، والولايات المتحدة من النظام العبودي إلي انتخاب أوباما).. لينتهي إلي نتيجة صادمة للحاضرين وهي أن مصر تتطور خلال عملية جدلية فيها شد وجذب، وأنها حققت أربعة تغييرات مهمة، (فمن ناحية الأمن القومي المصري قرارها بأيديها)، وهناك تغير اجتماعي مهم فمصر تنمو بشريا، فالكتلة الأساسية من سكانها (٨٤ مليون نسمة) شباب، يعرفون أمورا كثيرة في العالم وغير منجذبين إلي نماذج ما ضوية (عبد الناصر)، وتغير جغرافي فلأول مرة مصر تتلمس أطرافها وتصبح دولة بر ووادي وبحر، وتغير اقتصادي أدى إلي تنامي طبقة متوسطة واتساعها باستمرار، ويبشر د. عبد المنعم بحدوث ثلاثة تطورات سياسة مهمة، لخصها في اقتراب (الدولة الفرعونية) في مصر من نهايتها (فوجود انتخابات رئاسية تنافسية تجعل الإله ينزل عن عرشه)، وعودة الاهتمام وممارسة العمل السياسي إلى مصر مرة أخري بحيث أصبح المواطن جزءا من العملية السياسية، والاهتمام بقضية التنمية ورفض الطريق الخاص والعزلة والتمييز وسيطرة الدين علي الدولة، وينهي عبد المنعم حديثه بتحديد قوتين أساسيتين تقفان ضد التغيير هما.. البيروقراطية المصرية (٧ ملايين) والإخوان المسلمين.

وإذا كان د. علي الدين هلال قد تعرض للنقد لتحميله الجماهير مسؤولية الأزمات التي يعيشها المجتمع المصري وتجاهله عمدا لمسؤولية الحزب الوطني الذي احتكر الحكم وكافة السلطات طوال ٣٤ عاما هي عمر التعددية الحزبية المقيدة.. فقد هاجم المتحدثون - بحدة أحيانا - الصورة الوردية غير الحقيقية التي رسمها د. عبد المنعم سعيد للحياة في مصر، وتركيزه علي التطور التدريجي الحادث في مصر - علي الطريقة البريطانية والأمريكية - وحديثه عن التغييرات الإيجابية لقد استدعي ممثلا الحزب الوطني الرسميان في المؤتمر - دون قصد طبعا - شلالا من النقد والهجوم علي الحزب وحكومته وسياساته، بدءا من تحميله مسؤولية الفتنة الطائفية، سواء بإصراره علي المادة ٢ من الدستور وتعديلها للنص علي أن الشريعة الإسلامية (المصدر) الأساسي للتشريع، والتمييز ضد الأقباط في تولي الوظائف واستبعادهم من ترشيحات الحزب الوطني للمجالس النيابية، ومناهج التعليم والإعـلام.. وحصار الأحـزاب ومنعها من التواصل مع الجماهير، والقوانين التي تقيد حرية التنظيم والتجمع وقانون ١٠٠ لسنة ١٩٩٣ الذي جمد النقابات المهنية، وتزوير الانتخابات، إلي غير ذلك من الممارسات التي أدت إلي مقاطعة الشعب المصري للعمل السياسي، بما في ذلك امتناع أكثر من ٧٥٪ من المقيدين في جداول القيد الانتخابي عن التصويت في الانتخابات والاستفتاءات العامة، وامتناع أكثر من ٩٥٪ منهم عن الانضمام للأحزاب السياسية، والمشاركة في أي نشاط سياسي، علي عكس ما يقول د. عبد المنعم سعيد. لقد عاد المشاركون في هذا اللقاء وقد ازداد إحساسهم بالأزمة وبمسؤوليتهم عن التصدي للبحث عن مخرج، وأتمنى أن يكون غير المنتمين الذين يطلق عليهم (المستقلون) قد أدركوا أن التغيير لن يقوم به فرد أو مئات الآلاف من الأفراد (المستقلين) وإنما تحققه الجماعات المنظمة، أي الأحزاب السياسية وقوى المجتمع المدني المنظم.

عنف في المدارس

فريدة النقاش

اقتحم ما يقرب من مائتي طالب ينتمون إلي جماعة الإخوان المسلمين مبنى كلية الآداب في جامعة الإسكندرية وهم يحملون الشوم واشتبكوا مع مسؤولي الأمن وبعض الطلاب فأصابوا ثمانية وعشرين منهم، وذلك لأن إدارة الكلية منعهتم من جمع تبرعات دون ترخيص ولابد أن هناك أيضا ممارسات عنف قام بها الأمن مستفزا الطلاب.

وقبل أيام قام معلم بضرب الطفل (سيف) المريض بالسرطان وكسر ذراعه، وأصيبت الطالبة آلاء بالاكتئاب ورفضت الذهاب إلي المدرسة لأنها تخجل من مواجهة زميلاتها إذ تعرضت للإهانة أمامهن بعد أن ضربتها مدرستها بالشلوت ولكمتها علي ظهرها وهي تسعي الآن للانتقال إلي مدرسة أخرى.

وقيل إن الوزير الجديد (أحمد زكي بدر) صرح قبل أسابيع بأنه يجوز العودة للضرب في المدارس ملغيا بذلك قرارا للوزير السابق يمنع فيه الضرب في المدارس.

وفي استطلاع للرأي أجرته إحدى الصحف قال تلاميذ :إنه سواء أباح وزير التعليم الضرب أم منعه فإن المدرسين يضربون التلاميذ في كل الحـالات، والجديد أيضا أن بعض التلاميذ يقومون أيضا بضرب المدرسين، وكانت هناك واقعة مشهورة قبل أسابيع وصلت للمحاكم.

قال الخبير التربوي (كمال مغيث) إن الطفل الذي يتعرض للضرب إما أن يتحول إلي شخصية هروبية أضعف من أن تتحمل ما يحدث أو إلى شخصية عدوانية تتبادل العداء مع المحيطين بها وتكفر بقيم العدالة وبالمجتمع عامة، ونحن نعرف هذين النموذجين الشائعين عبر وقائع متكررة.

أصبح العنف إذن ظاهرة في المدارس والجامعات، ظاهرة تدق أجراس الإنذار وتقول لنا إن أجيالا جديدة مشوهة سوف تخرج إلي هذا العالم فاقدة الثقة مسكونة بفكرة الدفاع عن النفس بأي ثمن في مواجهة عالم يتفسخ ويتوحش، وذلك بعد أن جرى تدمير التقاليد الأولية البسيطة، ولم يعد المعلم أو المعلمة قدوة أو قوة دفع للرقي الاجتماعي والأخلاقي، أو رفع مستوي الأخلاق والسلوك في المحيط الذي يتحرك فيه إضافة لتوصيل المعرفة عبر الأساليب التربوية الحديثة والتي ليس من بينها الضرب قطعا.

أصبحت العلاقة بين المعلمين والتلاميذ علاقة تجارية لا تربوية، علاقة قوة وسيطرة تغيب عنها الروح العامة الأخلاقية والإنسانية التي من المفترض أن التعليم والتربية يبثانها في العلاقات داخل المدرسة تمهيدا لأن تشيع هذه الروح في المجتمع بعد ذلك حين يخرج إليه التلاميذ ويسهمون في تشكيله.

ويعرف التربويون جيدا هذا النقد الشامل الذي وجهه عالم التربية البرازيلي الراحل (باولو فريري) للأساليب البالية في التعليم والتربية والتي تبيح ضرب التلاميذ وإهانتهم، وأسهمت المدرسة التربوية المصرية وأستاذها الجليل (حامد عمار) في مراكمة إضافات مهمة للرؤية التقدمية للتربية كعملية متكاملة تنهض علي الحوار لا علي حشو المعلومات في عقول التلاميذ وحثهم علي الحفظ واستخدام الضرب وأشكال من العنف المعنوي حتي يثبت التلميذ أنه قادر على (تسميع) المعلومات التي جرى حشوها في رأسه دون أن يتعلم المساءلة والنقد والتحليل، وكان (فريري) ومدرسته قد دعوا لما أسموه بـ (التعليم الحواري) ناسفين قواعد التعليم (البنكي) بطابعه التجاري التسلطي القاسي.

ولكن العنف في المدارس والجامعات الآن ليس ناتجا فحسب عن المناهج والأساليب التربوية القديمة، ولكنه أيضا ناتج عن العنف المعلن والمخفي الذي أخذ يستشري في العلاقات الاجتماعية بكل مستوياتها حيث سادت قيم وأفكار المنافسة غير الشريفة البقاء فيها للأقوى وهو قانون الغابة.

حدث ذلك بعد نجاح العملية الجهنمية المسماةبسياسات الانفتاح الاقتصادي والتي إعادت بناء الواقع الاجتماعي وصولا لانقسامه المدمر بين أقلية غنية راكمت ثرواتها عبر السلب والنهب حيث اقترن الفساد الشامل بالسلطة السياسية وأغلبية ساحقة عاجزة عن العيش يعوق الاستبداد قدرتها على الدفاع عن حقوقها وتغيير هذا الواقع البائس.. والعنف في المدارس هو عرض جانبي لهذا الواقع الجديد.